البحتري والدراسات الاستشراقية

بقلم الدكتور صالح الأشتر

يلتقي النقد العربي ، قديمه وحديثه ، في الثناء على عبقرية البحتري ، ويفرد له مكانة رفيعة بين فحول الشعراء الذين عرفهم الأدب العربي . ذلك أن النقاد العرب مجمعون على الاعجاب بديباجة البحتري وسبكه وروعة وصفه وتصويره وصفاء موسيقاه وسحرها ، واحكامهم التي ينتهون إليها كلها تمجيد للشاعر العباسي الكبير وتقدير للخصائص الأصلية في فنه الشعري ، غير أننا نريد الآن ان نتبين موقف النقد الغربي من البحتري ، والمكانة التي يحتلها الشاعر العظيم فيما كتب عنه المستشرقون الأوروبيون.

لم يستطع البحتري ان يفوز من المستشرقين بدراسة منهجية جدية كالتي كتبها المستشرق الايطالي جابر يللي Gabrieli او المستشرق الفرنسي بلاشير Blachère عن المتنبي مثلاً ، وكل ما للبحتري في الدراسات الاستشراقية من نصيب ، هو تلك الفصول القصيرة او الاشارات العابرة التي يُضطر الى كتابتها كلّ من يتصدى من المستشرقين لوضع تاريخ عام للأدب العربي. فليس غريباً إذاً ان نجد اكثر تلك الفصول هزيلة المادة ، يبدو عليها روح الارتجال والسطحية . والحق ان ليس فيما كتب هامر Hammer-Purgstall وهوار Huart وبروكلمان Brockelman وغيرهم عن البحتري غير فقرات عن حياته منقولة بأمانة تامة عن ابن خلكان ، وغير احكام مستعارة من النقد العربي القديم. ويكاد يكون بحث دائرة المعارف الاسلامية عن البحتري الذي كتبه المستشرق الانجليزي مارجوليوث Margoliouth أهمّ ما تحويه دراسات المستشرقين في الموضوع .

امّا الخصائص التي يعدّها النقد الغربي للبحتري فيمكن تكشيفها في نقطتين ، اولاهما تأليفه لكتاب «الحماسة» الذي نهج فيه نهج استاذه ابي تمام ، فقد استهوت الحماسة البحترية المستشرقين واثارت اهتمامهم كما اثارته «حماسة» ابي تمام ، حتى إن نيكلسون Nicholson المستشرق الانجليزي يرى ان شهرة البحتري واستاذه مردُّها إلى حماستيهما ؛ ولم يرد ذكر البحتري عند المستشرق جيب Gibb في كتيّبه القيّم عن الأدب العربي الذي اسماه « مقدّمة » إلاّ ليشير إلى مقطوعات الشعر الجاهلي التي يحتويها كتاب « الحماسة » .

واما ثانية النقطتين التي وقف النقد الغربي عندها طويلاً فهي المادة التاريخية الدسمة التي يقدمها ديوان البحتري ، إذ اتيح للشاعر خلال عمره المديد الذي ناهز الثمانين واتصاله بأكثر رجالات القرن الثالث الهجوي وتنقّله الدائم في اقطار الشرق الاسلامي ، ان يصف في شعره اهمّ الحوادث التي شهدها بنفسه ، وبهذا يؤلف ديوان البحتري — كما يقول مارجوليوث — تكملة هامة لمؤرخي عصره .

نستطيع ان نقول إذاً إن البحتري اثار اهتمام المستشرقين كمؤلف وكمؤرخ ، ولم يفز باهتمامهم كشاعر كبير ، حتى إن جابريللي ليعد البحتري وابا تمام نظّامين ماهرين ينظمان على طريقة المدرسة القديمة ، وقد اهمل المستشرق فون كرومر Von Kremer ذكرهما في دراسته المطوّلة لكبار شعراء العرب ، ولم يُشر إليهما إلاّ في هامش إحدى صفحات كتابه الضخم ليتّهمهما معاً بإفساد الشعر العربي .

الاختلاف إذاً بين النقدين العربي والغربي شديدٌ جداً في الحكم على البحتري وفنّه وتمييز الخصائص التي يمتاز بها . وعلّة ذلك في رأينا ان المستشرقين لم يدرسوا البحتري دراسة علمية صحيحة ، فهم لم يُعنوا به عنايتهم بالكثيرين من الشعراء من طبقته كابن الرومي والمتنبي وابي فراس وابي العلاء ، وظلّ خير ما كُتب عن البحتري ممّا له بعض القيمة — كما يذكر جابريللي — مديناً لدراسات المشارقة العرب وحدهم .

يخيّل لنا ان هنالك عوامل كثيرة ساهمت كلها في حرمان البحتري من ان يكون له نصيب جيد في الدراسات الاستشراقية : اولها ان ديوان البحتري الذي طبع ثلاث مرات حتى اليوم لا يمكن ان يكون اساساً لدراسة منهجية عن حياة الشاعر وفنّه ، فالطبعات الثلاث مشحونة بالأغلاط التي يقف الباحث امامها حيران لا يدري مايريد الشاعر ، وبخاصة عندما تكثر الاشارات إلى حوادث لم يُعن مؤرخو القرن الثالث بإثباتها ؛ واخطر من

هذا كله ان الطبعات الثلاث لا تحوي مجموع انتاج البحتري الذي وصل إلينا، فعدد كبير من قصائده لا يزال طيّ المخطوطات؛ ودراسة منهجية صحيحة لا يمكن ان تقوم إلاّ على اساس الانتاج الكامل للأديب الذي نريد دراسته.

وعامل ثانٍ وهو ان المستشرقين لم يجدوا عند البحتري شيئاً جديداً يُغريهم بالتعمق في دراسته، فالأدب العربي عندهم لم يفز من البحتري بإنتاج يساهم في تطور الحركة الأدبية ودفعها في طريق الحياة، فقد وقف الشاعر إلى جانب استاذه ابي تمام يصدّ تيار المجدّدين في عنف ويثبت قواعد «النيوكلاسيكية»، وبذلك تمّ القضاء على المحاولة الجريئة التي ظهرت في أواخر العهد الأموي وأوائل العباسيين، وضاعت جهود كثيرين من الشعراء من أمثال بشار وأبي نواس وأبي العتاهية، ورسخت من جديد القواعد الشعرية القديمة.

وعامل ثالث له أكبر الأثر في انصراف المستشرقين عن البحتري وهو أن أظهر مميزات فنّه هذه الموسيقى الساحرة التي تسري في عروق ألفاظه. ولصياغة البحتري رنين هامس حلو يسحر الأذن العربية ويستهويها، ويدفع النقاد العرب إلى أن يقفوا عند «ديباجة البحتري» معجبين، يلتمسون فيها «سلاسل الذهب» كما يحلو للنقد العربي القديم أن يسمي شعر البحتري. هذه الميزة الكبرى يقف أمامها المستشرقون عاجزين عن فهمها وتذوقها، والأذن الغربية — كما يعترف بحقّ استاذنا المستشرق بلاشير — غيرُ قادرة على أن تستجيب لايقاع اللفظة العربية التي يختارها الشاعر.

لهذا كله أهملت الدراسات الاستشراقية العناية بالشاعر العبقري وقست في أحكامها عليه، وظل الشاعر المظلوم في دنيا الاستشراق بحاجة ماسة إلى إزاحة التجنّي عنه، بحاجة إلى أن يحظى ديوانه بطبعة نقدية علمية تحوي كلّ ما وصل إلينا من انتاجه الشعري، منقحاً مصححاً، مقدماً إلى الناس في ثوب لائق بالشاعر الكبير الذي تغنّت الأجيال العربية بشعره في أزهى عصور الحضارة الاسلامية، بحاجة إلى أن يغزوَ باحث عربي أوساطَ المستشرقين بدراسة منهجية لحياته وفنّه، تعتمد أساليبهم العلمية في البحث، ولاتهمل تذوق الصياغة البحترية، لتُريهم أن الشاعر العباسي الكبير يجب أن يحتل بحقٍ مكانه في الأدب العربي، في الصف الاول، إلى جانب كبار أعلامه وصفوتهم.

صالح الاشتر

سلسلة علم نفسك

سلسلة جديدة للثقافة العامة

نقلها الى العربية الاستاذ منير البعلبكي

صدر منها			ق. ل
١	كيف تكسب السعادة	لبرتراند راسل	١٥٠
٢	قادة الفكر الحديث (الطبعة الثانية) (كارل ماركس - برنارد شو - ويلز)	للاستاذ كوتس	١٥٠
٣	علم النفس الحديث	للاستاذ سارجنت	١٥٠
٤	كيف تفكر	للدكتور جبسون	١٥٠
٥	ألفباء المرض والشفاء	للدكتور كوبلاند	١٥٠
٦	الحضارة الاوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة	للاستاذ شيفيل	١٥٠
٧	أعمدة الاستعمار الاميركي (الطبعة الثانية)	للاستاذ فيكتور بيرلو	١٥٠
٨	مصرع الديمقراطية في العالم الجديد	للاستاذ البرت كان	١٥٠
٩	فلسفة من الصين	للفيلسوف لين يوتانغ	١٥٠
١٠	قصص انسانية عالمية	تشيخوف، تولستوي الخ	١٥٠
١١	إدفع دولاراً تقتل عربياً (الطبعة الثانية)	للاستاذ غريزوولد	١٥٠

دار العلم للملايين

صدر حديثاً

١٠ قصص عالمية

تمثل انتاج الجيل الجديد من ادباء القصة في العالم
وقد فازت بجائزة جريدة «نيويورك هيرالد تريبيون»

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين — بيروت

الثمن ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها